الفصل الثانى

# اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

## توجيهاتها بالنسبة للغزو الفكرى والثقافات الوافدة

ولكننا لم ننته بعد من دلالات الآية الكريمة . وذلك أننا إذا كنا قد ذكرنا بعض هذه الدلالات متخذين ألفاظ الآية أساساً :

فإن للآية جوًّا وروحانية ناشئة عن تركيبها العام وعن مغزاها الذى ينبثق عن هذا التركيب . وينبثق عن الجو الذى قيلت فيه . وعن ذلك سنأخذ فى الحديث الآن والله الموفق .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

إذا قرأ الإنسان باسم ربه ، إذا استجاب الإنسان – بمقتضى دخوله فى عقد الإيمان – للتربية الإلهية ، إذا كيّف الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه . . فقد أسلم .

وإن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » لا يخرج معناها ، فى ثمرته ، عن معنى : « أسلمت » والمسلم هو من دخل فى الإسلام ، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله . ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال :

« أن تسلم لله وجهك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف . والمسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية فى الأمور التى أنزل الله فيها وحياً ، إن

المؤمن الصادق لا يتخذ له فى العقيدة أو فى الأخلاق إماماً غير إمامه الربانى ، والأمور التى أتى بها الدين ونزل بها الوحى وصرح بها الكتاب هى مبادئ لا يجوز – فى أعراف المؤمنين الصادقين – العدول عنها إلى غيرها .

والموقف القرآنى فى ذلك حاسم كل الحسم :

« فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على أن تستمر المنابع التى يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً ، وعلى أن تستمر القراءة [1] « باسم ربك » لا تستقى إلا من المنابع الإسلامية الصافية .

وأول منبع هو القرآن الكريم ، ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يختلط بالقرآن غيره ، وكان شديد الحرص فى ذلك إلى درجة أنه لم يسمح ، فى العهد الأول من الوحى ، أن تكتب الأحاديث التى كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن ، ثم لما بانت معالم القرآن ، وبدت أوصافه الذاتية فى وضوح وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة السنة .

ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يلوث الدين الإسلامى بغيره . ولقد روى المحدثون فى ذلك أحاديث فى غاية العمق . منها ما رواه الإمام أحمد ، قال حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبى ، عن جابر : « أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) لعل القارئ يلاحظ اننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها فى حركتها وسكونها كما سبق أن أوضحنا ذلك .

قال : فغضب وقال : أتهوكون[1] فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى » إسناد صحيح « قصص الأنبياء ص ٣٠٨ ج ١ » .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبى عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، فقال : « والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم[2] حظى من الأمم » .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقى أيضاً عن أبى قلابة « أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب قال : نعم فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له فى ظهره وبطنه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب .

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذلك : « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المتهوكون » ( أى الواقعون فى كل أمر بغير روية ) . وقيل :

---

(١) أى أتتشككون فى ملتكم .

(٢) أنتم : أى ، أمة الإجابة ، أى الأمة الإسلامية كلها ، والله سبحانه وتعالى يقول ورسوله صلى الله عليه وسلم يعلن فى القرآن عن رسالة الله التى أرسله بها . لأنذركم به ومن بلغ .

المتحيرون إلى ذلك من الأخبار.

وأخرج الفريابى ، والدارمى ، وأبو داود فى مراسيله ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن يحيى بن جعدة قال :

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ، فنزلت : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ( العنكبوت : ٥١ ) .

وأخرج الإسماعيلى فى معجمه ، وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما ذكر مرويًا عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الغفار بن عبد الله ابن الزبير حدثنا على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد ابن عرفطة قال : « كنت جالساً عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم ، قال : وأنت النازل بالسوس ، قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، قال فقال الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس ، فجلس ، فقرأ عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » ، فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً ، فقال له الرجل مالى يا أمير المؤمنين ؟

فقال أنت الذى نسخت كتاب دانيال ، قال مرنى بأمرك أتبعه ، قال انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً

من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكتك عقوبة . . ثم قال اجلس فجلس بين يديه ، فقال :

انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماذا فى يدك يا عمر ؟ » قلت يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه . ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم : السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارًا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرّنكم المتهوكون » قال عمر فقمت فقلت : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولا .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة رضوان الله عنها ما أخرج ابن عساكر عن أبى مليكة قال : أهدى عبد الله بن عامر بن ركن إلى عائشة رضى الله عنها هدية فظنت أنه عبد الله بن عمرو فردتها وقالت :

يتتبع الكتب ، وقد قال الله تعالى :

« أو لم يكفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلَى عليهم » .

فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر فقبلتها[1] .

ولقد اختلف موقف المسلمين ذوى الألباب الزاكية اختلافاً صريحاً

---

(١) انظر فى كل هذه الأحاديث تفسير ابن كثير ، الألوسى ، وقصص الأنبياء لابن كثير عند تفسير أول سورة يوسف عليه السلام : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، وعند تفسير : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » .

سافراً بالنسبة للأخذ من مجالى الحضارة : المادى والروحى ، أما موقفهم بالنسبة للمجال المادى من الحضارات التى لم تنشأ فى الجو الإسلامى سواء أكان ذلك فى القديم أم فى الحديث ، فقد كان ولا يزال ، موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطويرها تطويراً مستمراً . إن اكتشاف نواميس الله فى الكون من واجبات المسلم . ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً فى الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك .

ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك فى عهد أبى جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين فى الجانب الروحى من الحضارات القديمة والحديثة موقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف .

لقد انتهر الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر فى شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقى فى العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة . وسار المسلمون على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى حتى كان عصر المأمون . ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد فى عصر المأمون ، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبى للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين : إحداهما لا يغفرها له المحبون للحرية ، والثانية لا يغفرها له أهل الصلاح والتقوى .

أما الأولى فإنها دخول المأمون فى النزاع الذى كان بين علماء المسلمين فى مسألة خلق القرآن . لقد دخل المأمون فى هذا النزاع بقوة الدولة : رغبة ورهبة . لقد دخل متحيزاً لفئة ، منكلا بالفئة الأخرى .

ولقد تحيز للمعتزلة ، والمعتزلة قوم حكموا أهواءهم فى الدين وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل . ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدى ، ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل ، وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى فى معرفة الخير والشر . وهم قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظرى ويتسمون بالفتور الشديد للجانب العملى من الدين . ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم .

وكان فى مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى ، وتوطين النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير فى ركاب النص القرآنى أو الحديث النبوى . ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للجانب العملى من الدين . وكانت تتسم بقوة الإيمان فصير ذلك حياتها إلى جهاد فى سبيل الله وكفاح من أجل السير على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضى الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية ، وكانت تضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك ، وكان يهتدى بهديهما ويقتدى بسلوكهما جمهور الأمة الإسلامية .

لقد ترك المأمون هذه الطائفة وانحاز إلى المعتزلة ، انحاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره ، وأخذ ينكل بكل من يعارضه . وكان المعارضون له هم من المتسمين بالصلاح الحقيقى والتقوى الصادقة : إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل .

وما كان لنا أن نعيب دخول المأمون فى نزاع علمى لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدئ للنزاع ، لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفاً ومانعاً للحدة بين الإخوة . إننا لا ننتقد الدخول فى النزاع وإنما ننتقد الكيفية

والصورة ، إنها ليست صورة دخول علمى فى موضوع نقاش دينى ، وإنما هى صورة دخول جبرونى ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع ، دخول من لا يريد أن يصغى إلى نصح ولا أن يستجيب لبرهان :

هذه سيئة ، وهى سيئة لا يرضى بها أحرار الفكر ولا يرضى بها المتدينون .

أما الثانية : فهى أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحى للأمم الأخرى ، وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكرى ، فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً آمراً بترجمة التراث الروحى والتراث الأخلاقى للأمم الأخرى ، يونانية كانت أوفارسية أوغيرها .

لقد ظن المأمون أن ذلك سينصره فى القضية التى اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم فى ذلك رؤيا للمأمون معبرة أوضح ما يكون التعبير : عن نزعة المأمون أوعن نزغته .

لقد رأى المأمون فيما يراه النائم : رجلا أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة ، حسن الشمائل ، جالساً على سرير ، قال المأمون :

وكأنى بين يديه قد ملئت هيبة . من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ، إن المأمون يصفه وصفاً جميلا . وصورته تملأ المأمون هيبة : فمن هو يا ترى ؟

يقول المأمون :

فقلت : من أنت ؟

فقال : أنا أرسطو .

فسررت به ، وقلت : أيها الحكيم ، أسألك ؟

قال : سل . .

قلت : ما الحسن ؟

قال : ما حسن فى العقل .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن فى الشرع .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن عند الجمهور.

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ثم لا ثم .

قلت : زدنى .

قال : عليك بالتوحيد .

وسواء أصحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبير صادق عما كان فى نفس المأمون وفى نفس المعتزلة من إكبار لأرسطو.

ولعل القارئ قد لاحظ مبدأ فى غاية الخطورة وهو مبدأ تقديم العقل على الشرع ، لقد جعلت رؤيا المأمون العقل فى الدرجة الأولى وجعلت الشرع فى الدرجة الثانية وهو مبدأ معروف عند المعتزلة وعند المأمون ، وهو مبدأ لا يقره أمثال الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين .

أما التوحيد فى الرؤيا فإنه التوحيد الذى عناه المعتزلة والذى عبر عنه أهل السنة بكلمة : « التعطيل » .

واستيقظ المأمون من رؤياه : فأمر بترجمة كتب أرسطو.

ولاقت هذه البدعة الجديدة ، بدعة ترجمة كتب العقائد ، وكتب الأخلاق معارضة شديدة فى الأجواء الإيمانية ، لقد رأت هذه الأجواء

أن فى عقائد المسلمين وفى أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن الوضوح ما يغنى عن غيرها .

ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الإلهى وبينها الأسلوب النبوى .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى عبر عنها . وإن رسوله صلى الله عليه وسلم قد طبقها . وهذه ميزة لا توجد فى غير الدين الإسلامى .

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاء الرسم الإلهى لصلة الإنسان بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشرى لهذه الصلة : رسم يخطئ ويصيب . ويضل ويهتدى ؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهى فى نضرته ودقته وإحكامه ، وفى وضوحه ، وبلاغته ، وإعجازه ، إلى أسلوب بشرى يترجمه أسلوب بشرى آخر .

إن البشر فى تأليفهم بشر مهما بلغوا من الدقة . ورحم الله العماد فى قولته المشهورة من أنه لا ينتهى الإنسان من تأليفه إلا ويتمنى أن لو أعاد التأليف من جديد ليغير ويبدل ويزيد ويحذف . وهذا شأن البشر ، شأنهم على مر العصور مهما بلغوا من العبقرية والنضج .

وهذا التأليف على هذا النمط لا تقرؤه بلغة صاحبه وإنما تقرؤه بلغة مترجم يترجم ما فهم هو من معانى المؤلف ، إن الترجمة مهما بلغت من الدقة ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف .

ولم الترجمة ؟ أفى العقيدة التى جاء بها القرآن والسنة نقص يستكمل ؟ ، أفى الأخلاق التى رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنيين ؟

إن الآراء التى لا تستند إلى وحى معصوم هى آراء وثنية . وإن الفرق

بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحى ، أما الوثنية فمصدرها البشرية فى عجزها وقصورها وجهلها ، وإن البشرية مهما بلغت فى الرقى الحضارى لا تنفك متسمة بالعجز والقصور والجهل . وإن الاكتشافات الحديثة التى لا تنقطع والتى تطلع علينا الأخبار منها كل يوم بجديد لهى أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها .

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول ، والكشف عن كل غامض وإزالة الحجب عن جميع المعميات ؟ .

أنترك العصمة المطلقة فى الوحى ، ونترك بيان من لا ينطق عن الهوى لنأخذ بقول هذا أو ذاك ممن يتسمون دائماً بالنقص والعجز ، وممن جهلهم أكثر من علمهم مهما بلغوا فى المعرفة والعلم ؟

هذه الآراء التى كانت تدور فى البيئة الإسلامية إذ ذاك والتى كان يؤمن بها ويتقبلها الأغلبية من الشعب لم تقف فى وجه الترجمة ولم تحل دون تنفيذ المأمون لفكرته .

لقد نفذ المأمون الفكرة . ووجد الأمراء أن من رضاء المأمون أن يحبذ الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاء المأمون : فساهموا فى مشروع الترجمة . ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المأمون أن يساهموا فى مشروع الترجمة : فعملوا على المساهمة بمالهم فى مشروع الترجمة . ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب من المأمون أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرهما : فتعلموها ، ودرسوها ، وعلموها ودرسوها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول فى البيئة الإسلامية على استحياء فإنها ، بمر الزمن ، استوطنت وألفها كثير من الناس عن

طريق التكرار. وشاعت الآراء واستقرت بالإلف والعادة والتبنى والدعاية.

ومنذ ذلك الحين أصبح بجوار:

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » . . أصبح بجوارها : « اقرأ باسم أرسطو ، واقرأ باسم أفلاطون » ، وفى العصور الحديثة : « اقرأ باسم ديكارت » أو اقرأ باسم . . .

وبدأ انحلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ « باسم ربك » أو قل إن انحلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم الإسلامية غيرها.

وإذا كان عصر المأمون يؤرخ العصر الذهبى للأمة الإسلامية، فإنه أيضاً يؤرخ اللحظات الأولى لدبيب الضعف فى هذه الأمة.

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظرى فى العقيدة والأخلاق، والانصراف إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقى والمدنية لا ينتج إلا فتوراً فى الإيمان وتخاذلا فى العزائم وتشككاً فى كل القيم.

وهل ينتج البحث العقلى : البحث فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية على أسلوب الإنكار والإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والمماراة - إلا فتوراً واستهانة ؟.

هل أنتجت الفلسفة إيماناً قوياً ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟ هل قادت إلى النصر؟

وتأمل معى ملياً فى أسباب نهضة أوربا فى عصورها الحديثة.

إننا نعرف أن أوربا عاشت أزماناً متطاولة فى جهل وهمجية وانحطاط. ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تتبنى نزعة أرسطو أو منهج أرسطو ، أى أنها كانت تتبنى الجدل الفارغ الذى لا يؤدى إلى نتيجة ، ولا ينتهى إلى ثمرة :

اللهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوربا تتنبه إلى منهج آخر فى الحياة وبدأ « بيكون » يعلن عن طريقة وأسلوب للمعرفة لا يعتمد على العقل النظرى البحت ، وبدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبى بدء عصر النهضة الأوربية . وكما أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر الأرسطى[1] انحطاط الأمم الإسلامية ، فقد أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر بدء النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد بلغوا قمة مجدهم حينما كانوا يقرأون « باسم ربك » وحده فإنهم قد بلغوا قمة ضعفهم حينما بلغت « باسم ربك » حدها الأدنى أى حينما تخلوا أو كادوا عن أن يتخذوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقائداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أى العودة إلى : « اقرأ[2] باسم ربك الذى خلق » .

هل يعنى ذلك أن تمنع الترجمة ؟ هل يعنى ذلك أن نعيش فى عزلة عن الفكر العالمى ؟ هل يعنى ذلك أن نمنع أنفسنا عن الاطلاع على الثمار التى أنتجتها عقول العباقرة أمثال أفلاطون وديكارت واسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا قصدنا وإنما قصدنا إلى معنى يعلمه فى وضوح كل من يتتبع تاريخ الفكر البشرى عبر القرون .

إن الظاهرة الواضحة فى تاريخ الفكر البشرى الذى لا يستند إلى

---

(١) لا نقصد أرسطو بالذات ، أو أرسطو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظرى فى مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق الذى لا يستند إلى وحى معصوم .

(٢) نعود فنقول نعنى بـ « اقرأ » رمزاً للحياة كلها فى حركتها وسكونها ، فى صمتها ونطقها .

التجربة أو الملاحظة أنه متغير باستمرار.

وأنه لا يستقر على رأى وأنه فى صيرورة دائمة . وهذه الصيرورة ليس من المحتم أن تسير دائماً فى طريق الجديد بل يجوز أن تعود القهقرى فترجع إلى مذهب تخلت عنه ، وتعود إلى ما كانت قد عرفت عنه . ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعفى عليه الزمن مرة ثانية أو ثالثة وهكذا يعيد التاريخ الفكرى نفسه تارة ويتجدد أخرى .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من المحتم أن يكون الجديد ترقياً فى الفكر أو سمواً فى الآراء . بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً وانحداراً .

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون إن الآراء النظرية البحتة مثلها كمثل أزياء النساء تتبدل كل عام . وهذا التشبيه للآراء العقلية البحتة فى جانب العقيدة ، وفى جانب الأخلاق بأزياء النساء فى التبدل والتغير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم تشبيه فى غاية الصدق .

لقد كادت فرنسا يوماً ما أن تؤله « أوغسط كومت » لقد كان أتباعه ومريدوه يقدسونه ولقد وضعوه على القمة . . ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لا يقام لها وزن اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكرى الذى عفى عليه الزمن .

ولقد كانت السوفسطائية يوماً من أكثر المذاهب انتشاراً فى اليونان ثم عفى عليها الزمن واندثرت وتبينت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام . بل يصل به الهدم إلى هدم نفسه . وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمذهب . ثم بعثته طائفة من المنحرفين فى العصر الحديث تحت اسم « الوجودية » وليست الوجودية إلا هذا المذهب المتعفن الذى تقايأه بعض

المنحرفين فى اليونان منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .

وإذا رأيت فى بعض أحياء أوربا فتى يلبس لبس فتاة وتسأل لماذا يفعل ذلك قيل لك إنه وجودى ، وإذا رأيت فتاة تخرج على أدنى درجات العرف الأخلاقى وسألت عنها قيل لك إنها وجودية ، وإذا رأيت إلحاداً سافراً وكفراً صراحاً ، وسألت : قيل لك إن ذلك وجودية .

وإيمان الوجودى – إذا آمن – مسألة مزاج ، إنه « كيف » كشرب السجائر مثلا وكشرب الشاى فى مواعيد معينة ، وهو بهذا الاعتبار ليس إيماناً ، فليس فى الوجودية فى حقيقة الأمر إيمان بالمعنى الصحيح للإيمان .. واشمأز الغرب من الوجودية ، وها هى ذى تلفظ أنفاسها الأخيرة هناك ، وذلك لأن الغرب شاهد المظاهر وشاهد النتائج فعرف أن الوجودية مذهب المتحللين والمنحرفين .

ولقد طنطنت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له ، وظن الديكارتيون أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ، ويكشف عن كل مخبأ . . وتمضى الأيام ، وإذا بالمشاكل هى المشاكل ، والمحجوب هو المحجوب ، والمخبأ هو المخبأ برغم استعمال منهج ديكارت وتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديكارتيين . وتمضى الأيام كذلك ، وإذا بآراء ديكارت فى الطبيعة – آراؤه التى بناها متخذا فيصلا – قد انهارت رأساً على عقب .

ولنتحدث الآن عن الفلسفة بصراحة .

إن من خصائصها - على مر الزمن – أنها تبدأ من الصفر : أى أن كل فيلسوف يأتى يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية وصلت إلى الحق فى محيط ما وراء الطبيعة ، وفى محيط الأخلاق ، وأن

مجال العقائد ومجال الأخلاق ما زال بحاجة إلى نظرة من الأساس . إنه ما زال بحاجة إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تليها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلن الفيلسوف بذلك أن جميع الصروح القديمة فى تصميمها خلل ، وفى وضعها فساد ، وأنها خطأ فى منهجها وفى وضعها ، وأن العالم الذى عاش بهذه الطريقة قد عاش – منذ أن وجدت هذه الصروح – فى أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين ... أوهام .

ومن خصائص الفلسفة أنه لا مقياس لها تلجأ إليه عند الاختلاف ، لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه وأخفق عند كل المناطقة ، إنه لم يحسم الخلاف فى مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله ، ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج فى الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا فى مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك لا سبيل له فى الجو الفلسفى .

إن العلم المادى إذا اختلف فيه العلماء فإن الفاصل فى هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة .

والملاحظة والتجربة فيصل فى الجو العلمى المادى . ما هو الذى فى الجو الفلسفى – بمثابة التجربة فى الجو العلمى ؟ لا شىء .

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة .

أما أحدهما فهو أن الفلسفة فى جميع آرائها – عقلياً – ظنية ، وذلك أنه لا وسيلة للفصل فيها بين الخطأ والصواب .

أما الثانى فهو أن الخلاف فى الفلسفة سيستمر أبد الدهر : ستجد دائماً المؤيد للفكرة – أى فكرة – والنافى للفكرة – أى فكرة – ستجد المثبت والمنكر .

وينتج عن كل ما قدمنا نتيجة لازمة هى من خصائص الفلسفة أيضاً وهى أن الفلسفة لا تقدم فيها . إن مسائلها القديمة هى مسائلها الحديثة ومشاكلها مشاكلها فى كل عصر وفى كل زمن . إن مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد أفلاطون هى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد ديكارت ، وهى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى الزمن المعاصر وحتى مضحكات الفلسفة – وللفلسفة مضحكات قد صورت بصورة مشاكل – حتى مضحكات الفلسفة : المشكلة ، لا تزال هى هى . إن برجسون فى العصر الحديث قد أخذ يتحدث عن مشكلات الفيلسوف الساخر زينون الذى ابتدع فى صورة طريفة من البدهيات مشاكل وحاول توريط الفلاسفة فيها . ونجح فى أن جرهم إلى البحث فى البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بداهتها ، وسخر منهم زينون ، وسخر منهم كل ذى بصر وبصيرة .

ومن كل ذلك أيضاً نتبين أن الفلسفة - وهذا من خصائصها أيضاً – لا رأى لها معيناً فى أية مسألة من المسائل وذلك أن لها فى كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة .

ولعله أصبح الآن سافراً أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم سراب .

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من كل ما تقدم فهى أننا لو قرأنا الآراء النظرية البحتة على هذا الوضع الذى أوضحناه فلا بأس وتكون بذلك القراءة باسم الفلسفة أو باسم الجانب النظرى من الفكر الإنسانى مسلاة وتسلية وسياحة فى أجواء تختلف وتتعارض وتتناقض ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره : ونعود من هذه السياحة مقتنعين بوجوب :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق » .